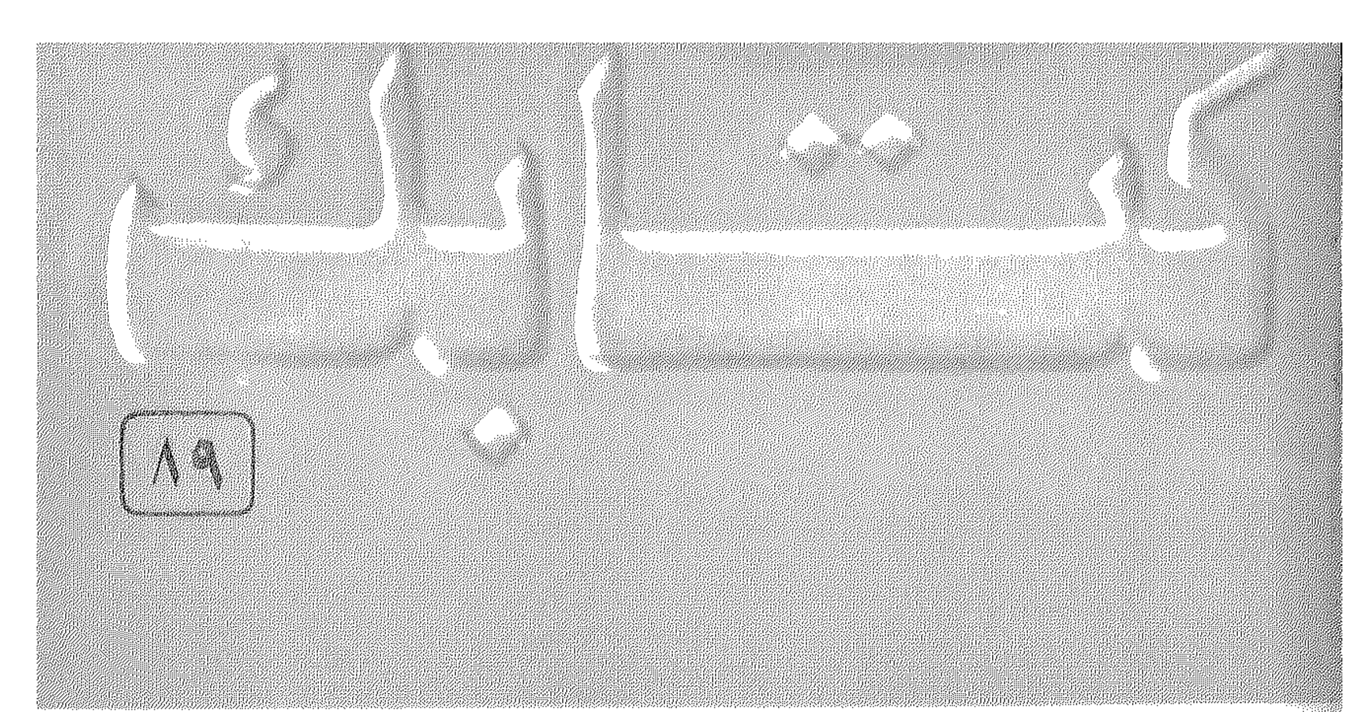
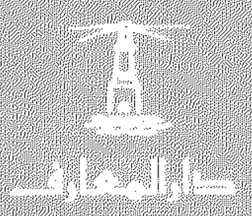
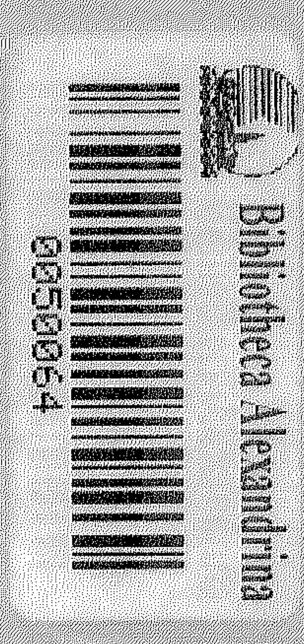


نشأت التغلبي

لئلا نحترف البكاء





كتابك ٨٩

رئيس التحرير أنيس منصور

نشأت التغلبي

لئلا نحترف البكاء



دار المعارف

حضارة لا نملكها

ويدور نقاش طويل حول هذه الحقبة : هل يجب أن يسعى كل مواطن ليبقى أحداثها حية ؛ أو يجب أن نطويها إلى الأبد ، وأن نكتفى بمشاهدة أطلالها دون أية حسرة ؛ لأن الحسرة لا تجدى ، ولأن الزمن لا يعود القهقرى ؟

ويتحمس أحدهم ليقول : ما بالكم لا ترون إلى أبعد من أنوفكم ؟ . . أتريدون أن نطوى أهم مرحلة فى حياة أمتنا العربية ، وأن أسلافنا أخطئوا ، ولا يستحقون إلا العقاب على أخطائهم ؟ . . ألا نخطئ نحن كل يوم ؟ أليست أخطاؤنا أشد إجراماً من أخطائهم ؟

ويقول ثانٍ : لا ، الفارق كبير ؛ الذين عاشوا تلك الحقبة كانوا يملكون القوة التى أتاحت لهم صنع حضارة ساحقة عجز الزمن عن ردمها تحت رمال النسيان ! أما نحن فإننا لا نزال مغلوبين على أمرنا ، حديثى العهد بالاستقلال والسيادة تفتك بنا الأوبئة التى زرعها الاستعمار فى أرضنا . ولا تتوافر القوة لنا لندرأ بها ما جدَّ من ويلات !

ويغضب ثالث قائلاً : هذه أكذوبة كبيرة ، نحن العرب مصابون بداء الخلاف والشقاق : عندما كنا نملك القوة كنا مختلفين على الزعامة ، وعندما بتنا نبحث عن القوة ظل الاختلاف نفسه على الزعامة ! وكما

فتاك الخلاف فى الماضى بالبناء الحضارى الذى أقامه أسلافنا -- يفتك الخلاف فى الحاضر بالأساس الحضارى الذى نحاول إقامته !

ويصيح رابع : نحن نتحدث عن الحضارة دون أن نملكها : هل الاقتتال فيما بيننا حضارة ؟ هل عجزنا بالرغم من تعدادنا وإمكاناتنا عن مواجهة عدو لا يزيد تعداده عن تعداد حى فى القاهرة ؟ أهذه حضارة ؟

وقال خامس : دعونا نتساءل بموضوعية : ما الذى يحول دون وحدة أمتنا ؟

بعضهم يقول : فكرة الوحدة لم تنضج بعد ! اسمحوا لى أن أرد على هذا القول فأصفه بالكذب والبهتان : فالوحدة هى الشئ الذى يحقق لشعوب أمتنا مصالحها ، ويحل أزماتها ، ويضمن القوة لها . اقتصادياً نحن فى حاجة ماسة إلى الوحدة ، عسكريًّا : نحن أيضاً فى حاجة ماسة إلى الوحدة ، وعندما نكون محتاجين إلى الوحدة اقتصاديًّا وعسكريًّا فلابد من أن نكون محتاجين إليها سياسيًّا أيضاً ، لكننا مع الأسف اعتدنا ألا نخضع السياسة لمصلحة أمتنا ، وإنما اعتدنا أن نخضع المصلحة للسياسة ! ولما كانت السياسة -- من صنع الأفراد ، وليس من صنع شعوب -- فإن من البديهى ألا تلتقى إلا على تطلعات ذاتية . والتطلعات الذاتية هى ألد أعداء المصلحة التى تطرح على مستوى الأمة ككل .

ويضحك سادس قائلاً : إلى أين تريدون الوصول من هذه المناقشة ؟ إلى أحلام جديدة تُلْغِى أحلاماً قديمة ؟ . . نحن نفاخر دائماً

بأننا أمة تضم مائة أو مائة وخمسين مليوناً من العرب . . ونجد أنفسنا مبهورين بالرقم . متناسين أن هذا الرقم مجزأ ، مشتت ، وأن على رأس المائةوالخمسين مليوناً عشرات الحكام . ولو اكتفى الحكام بالنفوذ لهان الأمر ، لكنهم يتعانقون فى الظاهر ويتطاحنون فى الخفاء ! وإذا ما ضاقوا ذرعاً بسرية التطاحن لم يترددوا عن الانتقال به إلى العلن معبئين قوى الأمة بعضها على بعض ، تماماً كما حدث فى ذروة الحضارة العربية ، فأودى بها ؛ كما أودى بأصحابها ! وكانت الدماء التى سالت فى الحروب الداخلية أغزر بكثير من تلك التى سالت فى الحروب الخارجية ! ذلك لأننا أقوياء بعضنا على بعض ، ضعفاء أمام أعدائنا أيًّا كان هؤلاء الأعداء ! فلماذا لا نعترف بهذه الحقيقة ونريح أنفسنا ؟ إننا لا نريد أحلاماً جديدة بقدر ما نريد رؤية واقعية ظللنا حتى الآن عاجزين عنها !

وينبرى سابع ليقول : هذا كله لا يبرر تقاعسنا ! إذا كان حكامنا لا يريدون ، فنحن نريد . وإلا فما يبرر وجودنا ؟

يصيح الأول محتجاً : وماذا تفعل بالقوة العسكرية ؟

ويجيب السابع : لم تكن القوة العسكرية فى أى يوم من الأيام قادرة على كبت إرادة الجماهير !

ويعود الأول إلى الصياح : أنت الآن تحلم !

إرادة الشعوب

ويمضى السابع قائلاً : لا نريد أن نختلف على احتمال أنى أحلم ! نريد أن نتفق على العلاج ، ألا تشعرون بأننا – حتى فى هذه المناقشة – مختلفون على الأسلوب فى حين انطلقنا من شجبنا لاختلاف أسلافنا ومعاصرينا ؟ ألم يصل إلى أسماعكم القول الواقعى : «إن إرادة الشعوب من إرادة الله ؟ إنما المهم حتماً أن تجمع الشعوب على ما تريد . . ألا تخشى قوة قمع ؟ ألا تضطرب أمام اضطهاد ؟ ألا يقول أحد لآخر : اذهب أنت وربك فقاتلا ؟ . . لنكن عمليين ! أنا أكره الخيال والأحلام . نحن كشعوب أصل الداء ، ونحن فى الوقت نفسه ، نملك مكونات العلاج . إن التحجج بالقوة التى لا نملكها ، والتى تستخدم وسيلة للضغط علينا إنما هو تحجج باطل استسغناه عندما استسغنا الإذعان لإرادات وتوجيهات لا نرضى عنها !

ولم نفتح عيوننا على حقائق تاريخنا وحقائق حياتنا ، ونستخلص من ذلك الواجب المفروض علينا كبشر يتطلعون إلى مستقبل يليق بإنسانيتهم – نستطيع امتلاك القوة التى تكفل لنا انطلاقة صحيحة على طريق سليم ، فلا نؤخذ بالسياسات المتضاربة التى تلغى اليوم ما أقرت بالأمس ، وتقر اليوم ما ألغت بالأمس ، ولا نخدع بالأقوال المنمقة

المجردة من مضمون حقيقى ، ولا نغمض العين ونصم السمع عن أكاذيب نعرفها ، ونعرف خفاياها ، ومع ذلك لا نجرؤ على التصدى لها ، وإعادتها إلى جحورها !

إننى معكم فى أن التاريخ لا يعيد نفسه . . وأريد التمسك بهذه النظرية ؛ لأن إعادة التاريخ فى أوضاع كأوضاعنا مصيبة أكبر . فنحن نريد أن نكتب التاريخ ، وأن نبنى لأنفسنا ولوطننا ولأمتنا تاريخاً جديداً ، أو لنقل حاضراً جديداً ، يحتفظ المستقبل به تاريخاً مجيداً . وهذا لن يكون إلا إذا اعتبرنا بحوادث التاريخ الذى مضى وانقضى ، فأخذنا منها أفضلها ، وأهملنا منها أسوأها . . وبغير هذه الرؤية نحن لا نستفيد من التاريخ ، ونكتفى باحتراف البكاء على أطلال منجزاتنا الغابرة !

* * *

من هذه المناقشة خطر لى استرجاع حقبة من التاريخ ، من تاريخنا العربى ، والمحور التلقائى الذى انبثقت منه حضارة اعتبرها العالم بحق من أعظم الحضارات الإنسانية . .

واسترجاع حقبة من التاريخ لا يمكن أن يتحقق فى وقائع جامدة ، فنحن نطل على هذه الحقبة من وراء هياكل لا يزال العالم يتعبد فيها إلى الآن !

وبحكم هذه الحقيقة لابد من أن يمتزج ما يسمى « بأدب الرحلات » بالنظرة والتعبير الوجدانيين ، وبالجانب الزاهر من تلك الحقبة ، وإن

كان من المتعذر تجاهل النتائج ، وما آلت الأمور إليه .

والتاريخ الذى يشاهد بالعين «المجردة» غير التاريخ الذى يقرأ بالعين نفسها ، إنه يكتسب أبعاداً لا تتوافر فى القراءة . وحياة لا يمكن أى قلم تصويرها والتعبير عنها .

وحتى فى وسط الآثار الضخمة والأطلال الدارسة تظل القيمة الأولى للإنسان .

قد يتغير الإنسان بالشكل ، بالتصرف بأسلوبه فى الحياة . بتأثره بعصره . . لكنه يبقى حتماً ، ذلك الخلف الذى اكتسب كثيراً من السلف . .

ولهذه الظاهرة أهميتها عندما يكون التاريخ قد فقد امتداده . . أى حيث لم يعد العرب عرباً . بالرغم من بقاء قطرات من الدم العربى فى شرايين الذين كانوا ، والذين عادوا إلى حيث غزا العرب ، ثم تقهقروا وتواروا !

لكن – مع أن الهزيمة كانت نكراء – فإن الظل العربى لم ينحسر كثيراً . . بقى بجذوره العميقة على حافة الجبل الذى حمل اسم بطل من أبطال الفتح العربى ، وقد ظل اسم هذا البطل (طارق بن زياد) ناصعاً ، صلباً كالجبل الذى قهره ، وكالبحر الذى استوى على عبابه ، وكالإرادة الجبارة التى أبت الالتفات إلى الخلف ، فاستبدلت به رؤية مستقبلية ثابتة وجريئة ، تذوى بكل ضعف وبكل تردد ، وتقطع

الطريق على أى تراجع وتقهقر !

* * *

أجل . نحن لا نريد احتراف البكاء : ففى وسعنا أن نبنى جسوراً صلدة فوق أنهر الدموع التى ذرفناها طوال قرون وقرون ، حتى جفت عيوننا ، ومع هذا بقينا نبكى دون دموع !

لقد كان لليهود مبكى واحد فى مدينة القدس . وقد عادوا إليه ، وقرت عيونهم ، واستبدلوا بدموعهم دماء عربية !

أما نحن العرب فإن لنا ألف مبكى ومبكى . . من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، ومن أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب .

اليهود تعلموا من مبكى واحد ! ونحن لم نتعلم من ألف مبكى ومبكى !

اليهود اعتمدوا على قومية صهيونية . تضامنوا حولها وإن لم يتفقوا عليها . .

ونحن تحدثنا عن قومية عربية ، لكننا لم نعتمد عليها ، ولم نتضامن حولها ، واختلفنا على تفسيراتها ، حتى جعلنا منها كابوساً بعد أن كانت أملاً ، ومهزلة بعد أن كانت مقدسة ! . .

لماذا ؟

التاريخ وحده يجيب عن هذا السؤال !

قال لى صديقى العربى وأنا أستعد لمغادرة «مدريد» فى طريقى إلى «الأندلس» :

– إنك ستبكى كثيراً !

ونظرت إليه وقد استولت الدهشة علىّ وسألته :

– ولماذا أبكى ؟

أجاب وكأنما كان واثقاً من أنه لا يخطئ فى تقديره !

– روعة ما سترى ! ستدفع بالدموع تلقائيًا إلى عينيك !

قلت بلا مبالاة !

– لم أعتد البكاء على الماضى ، إننى أفضل النظر دائماً إلى الأمام ، إلى المستقبل ، ولا يُبنى مستقبلٌ يقضى أصحابه وقتهم فى البكاء !

الأرض المسحورة

الشمس تشوى كبد السماء ، تلتهم زرقتها الصافية ، تملأ النفس سأماً وكسلاً ، وعجلات السيارة تئن على الطريق السوداء التى تطوى التاريخ ، ورفيقى فى الرحلة شبه نائم وقد أرهقه الحر ، واستل منه كل نشاط ، وصمت عجيب يستعبدنا ، ويعطل تفكيرنا ، لكننى أرفض الاستسلام !

إننا ندخل منطقة مسحورة ، أراها للمرة الأولى ، لكن معالمها ليست غريبة عنى ، هذه الأشجار التى تنثر ظلالها هنا وهناك ، هذه البيوت الصغيرة التى ترصع واحة خضراء متعددة الألوان – تتسلق جبالاً تحنو على الوادى وتحتضنه ، هذا الجبل الشامخ الذى لا تزال عمامة من الثلج تلف قمه بالرغم من وطأة الحر ولهب القيظ ، كل شئ يذكرنى بأشياء رأيتها من قبل ، وعشت فيها ، إنما كان ذلك بعيداً عن هذه المنطقة ، وبعيداً عن أهلها !

وأغمض عينى وأعيش تاريخاً عزيزاً على نفس كل عربى .

على هذه الأرض التقى زعماء القبائل المصرية والسورية وتعاونوا ، واتحدوا ، وصنعوا مجداً أثيلاً أصيلاً .

فى هذه الربوع ازدهر الحكم العربى الزاحف من دمشق والقاهرة ،

منذ نحو سبعمائة سنة ، ولم تكن الخلافات بعد عصفت بالأمة العربية !

عرف العالم كله معنى انطلاقة الصحراء الكبرى ، لتصنع مدنية خالدة ، ولتبنى للإنسانية معاقل حضارية كثيرة !

قرطبة ، إشبيلية ، غرناطة ، مالقة ، طليطلة ، أسماء كثيرة وأراض واسعة ، وزحوف تتسلق الجبال ، وتحرر العبيد ، وتطلق العقل الإنسانى من عقاله ، وتحقق ما يشبه الأساطير !

وأشد جفونى بعضها إلى بعض لكيلا تتفتح على الحقيقة ! أريد أن أعيش قليلاً على الماضى . أريد أن أستمتع بتلك الأيام حينما كان فى وسع العرب المضى فى بناء الحضارة ، كما فى وسعهم أن يحسبوا للغدر وللفرقة حساباً ، لكن رفيقى لا يلبث أن يستيقظ بفعل ارتجاج مفاجئ هز السيارة هزًّا عنيفاً ، فيوقظنى معه ، وأحس برعشة كما لو أن الموت والحياة يتصارعان فى أعماقى ! ويلاحظ رفيقى أن عينى فى شبه تيه لا نهاية له ، فيسألنى :

– ما بك ؟ . .

– لا شئ !

– لعلها رائحة الصيف ! إنها هنا عنيفة نافذة .

– بل هى رائحة التاريخ بكل ما فيها من أريج معطر .

– ألم أقل لك ! على أية حال أنت لا تزال فى نقطة البداية .

* * *

الحقيقة أنها لم تكن نقطة البداية .

نقطة البداية كانت لحظة لامست قدماى أرض إسبانيا . فى تلك اللحظة أحسست بأن جو الشرق قد احتوانى من جديد .

وجه أسمر جميل ، عينان خضراوان ، جسم معتدل متناسق ، يدان رقيقتان ، هذا أول ما وقعت عيناى عليه ، وكان فى مجموعه مضيفة إسبانية تتكلم بصوت حاد ، وتكثر من حركة يديها وهى تدعو ركاب الطائرة إلى الانتظار بضع لحظات ريثما تصل السيارة التى تقلهم إلى مبنى المطار . ولم يكن المبنى يبعد عن الطائرة أكثر من مائتى متر !

ووجدتنى أمد يدى إلى ربطة عنقى أحل من عقدتها ، فقد كان الجو شديد الحرارة وكانت رائحة الغبار تختلط ومزيجاً من الروائح العطرية والغازات المنبعثة من محركات عشرات الطيارات كما تختلط لغات العالم كله فى ضجيج يملأ الرأس صداعاً !

بعد نحو خمس دقائق انتقلنا إلى مبنى المطار . وبعد نحو نصف الساعة كنا خارجه .

مدخل مدينة مدريد لا يختلف ومدخل أية مدينة شرقية ، لكن المدينة نفسها تحمل طابعاً أوروبيًّا وتبحث فى المدينة عن الملابس الإسبانية التقليدية فلا تجدها ؛ لأنها كادت تنقرض ، ولم يعد لها وجود إلا فى الأندلس أو فى المناسبات والأعياد ، أو فى الملاهى الليلية ، أو فى مغارات الغجر فى غرناطة .

قلت : أذهب إلى غرناطة فوراً !

لكن موظف الاستعلامات فى الفندق ضحك وهو يجيبنى :

– تبعد غرناطة عن هنا ٤٣٨ كيلو متراً ولابد من أن يصحبك دليل إذا كنت لا تتقن الإسبانية . ولم أعرف أهمية هذه الإجابة إلا حينما دخلت غرفتى لأغسل « وعثاء السفر » كنت أحس بعطش شديد فقرعت الجرس ، فجاءت الخادم . كانت بدينة جدًّا بيضاء البشرة جدًّا ، بطيئة الحركة جدًّا .

طلبت إليها أن تجيئنى بماء مثلج ، وكنت أكلمها بالفرنسية ، فلم تفهم . واستعنت بمعلوماتى القليلة فى اللغة الإنجليزية ، فلم تفهم أيضاً ، قلت فى نفسى : أكلمها بالإيطالية فهى لغة قريبة من الإسبانية قلت لها : « اكوا كون جيلو » أى ماء مثلج ، ولشدة دهشتى لم تفهم ايضاً . ولم يبق أمامى سوى أن أستخدم لغة البكم . دخلت الحمام ، وفتحت حنفية المياه وأشرت إلى ما يتدفق منها . ثم جئت بكأس فملأتها ورسمت بأصابعى ما يشبه المربعات وأشرت إلى أن هذه المربعات توضع فى الماء أى فى الكأس . بعد مضى ربع ساعة فهمت الخادم الذكية ما أريد وصاحت بالأسبانية آه . . أواكون ييلو ! . .

وكدت أشد شعرى من الغيظ : فالجملتان الإيطالية والإسبانية متشابهتان ، ومع هذا تعذر علىّ إفهامها إلا بالإشارة ! . .

ولم أشأ التعمق فى البحث عن السبب ، واكتفيت بأن نسبت

ضعف ذكائها إلى بدائيتها ! لكننى كنت مخطئاً ! فقد جاء بعدها خادم نحيل كعود الكبريت ، ولم يكن حظه من الفهم أفضل من حظ زميلته ، فنفضت يدى من اللغة الإيطالية واقتنعت بضرورة اصطحاب دليل يتقن الأسبانية ضماناً لعدم البقاء فى الشوارع !

الشعب الراقص

كنت أتصور أن الجمال فى إسبانيا مثل الزيتون الذى تنتجه البلاد بكثرة عجيبة . لكن اتضح لى أنه محدود ، إن لم أقل إنه نادر . وحين أفلتت منى هذه الملاحظة أمام صديق عربى ثار ، وأرغى وأزبد وقال : ماذا رأيت من الجمال الإسبانى ؟ قلت : الذى رأيته إلى الآن – وكان قد مضى على وصولى ثلاثة أيام – يكفى بإعطائى فكرة . قال : أنت مخطئ ! قلت : نقوم بتجربة . قال : كيف؟ قلت : نجلس فى أحدمقاهى الرصيف ونحصى عدد الجميلات خلال عشردقائق . فنعرف النسبة المئوية على وجه التقريب .

وقمنا بالتجربة فى وقت يكثر فيه العابرون والعابرات . وخلال الدقائق العشر أحصينا مائة وثمانياً وعشرين فتاة مرت أمامنا بينهن ثلاث فقط جميلات !

وأصابت صديقى دهشة شديدة . إلا أننى اعترفت له بأن الفتاة الإسبانية عندما تكون جميلة فإن جمالها يكون مذهلاً . بل يصح أن يقال إن الجمال كله اجتمع فيها !

والإسبان مرحون جداً ولاسيما بعد منتصف الليل ! إن كثيرين منهم يحبون الغناء والرقص فى الشوارع ، ولا تبدأ سهراتهم عادة إلا بعد

الحادية عشرة ليلاً . أما فى النهار فلا يبدأ العمل إلا فى العاشرة والنصف . وهم يقبلون عليه بجد ونشاط . وفى أيام الآحاد تمتلئ الكنائس بالرواد . والنساء لا يذهبن إلى الكنيسة إلا متشحات بالمانتيلا– وهى نوع من «الدانتيل» الأسود– وبملابس مقفلة الصدور طويلة الأكمام .

وباعتبار أن إسبانيا بلاد كاثوليكية متدينة فإن معظم الأعياد فيها ذات طابع دينى ، وكل عيد من هذه الأعياد مناسبة للشعب لكى يملأ الشوارع بمختلف المظاهر المرحة . وتصدر المديرية العامة للسياحة تقويماً سنوياً خاصاً بالأعياد يهتدى السياح به ، ويحرصون على حضور الاحتفالات بها . من هذه الأعياد مثلاً عيد الملوك (٦ من يناير) وهو عيد خاص بالأطفال ، وعيد القديس أنطونيو (١٧ من يناير) وفيه تمنح البركة للحيوانات الأليفة ، وعيد القديس يوسف (١٩ من مارس) ويسمونه (فالاسى دى سان خوزيه) ثم الأسبوع المقدس فى إسبانيا كلها ولاسيما فى أشبيلية وقرطبة وملقة وخيريز وخاين ، ثم عيد الرب وعيد العذراء وعيد عذراء كارمن (١٦ من يوليو) وعيد الصعود (١٥ من أغسطس) وعيد القديس حنا (٢٤ من يونيو) وغيد القديس بطرس (٢٩ من يونيو) وعيد القديس جاك (٢٥ من يوليو) إلى آخره . .

وهناك أيضاً أعياد الشفعاء المحليين ومثل القديس آجيدا (٥ من فبراير) وإيزيدرو (١٥ من مايو) وفيرمان (٧ من يوليو) وغيرهم .

ومن بين الأعياد المهمة فى الأندلس عيد « روسيو
الصوم ، وعيد « مونتيهير موزو » فى شمالى « كاسبريس »
القديسين وعيد الميلاد فهما من الأعياد العائلية وترافقهم
شعبية عدة . وأما الأعياد الأخرى فتمتاز بإقامة ا
وبالرقص فى الشوارع . وهى أيضاً مناسبات تنتهز
الإسبانية المشهورة فى مختلف أنحاء العالم .

والطريف أن الإسبان يختتمون السنة دائماً مساء ٣١
١٢ حبة من العنب حين تعلن الساعة الثانية عشرة
الحبات إلى شهور السنة ، وتعنى باستمرار الحياة طوال
يبدأ احتفال شعبى ضخم فى ميدان « بويرتا ديل سول »
فى مدريد .

وقد أدت كثرة الأعياد فى إسبانيا ومرح الناس فى
اجتذاب عدد كبير من السياح ، فأنشأت الحكـ
الاستراحات على شكل فنادق ، يستطيع السائح إذ
الطريق المبيت فيها بأجر زهيد .

رواسب شرقية

والإسبانى محافظ بطبعه . وهذا الطبع هو أحد الرواسب الشرقية ؛ لذا يكره الإسبان رؤية الشبان يخطرون فى الشوارع بقمصان مفتوحة الصدور دون سترة وكثير من المطاعم ودور السينما يمنع الدخول إلا بالملابس الكاملة ولا تساهل فى هذا الموضوع إلا مع السياح . ويعتبر الإسبانى نفسه سيداً مطاق السيادة فى البيت له على زوجه حق الطاعة الكاملة . وهو يكره أكثر ما يكره النساء اللواتى يلبسن البنطال ويظهر اشمئزازه إذا ما رأى شاباً يسير فى الشارع وذراعه تطوق خصر فتاة !

والرقص الإسبانى المعروف متوافر فى كل مكان فى مدريد . كما أن وجبة الأرز الإسبانى (البايا) منتشرة فى المطاعم كلها تقريباً ، وكذلك النبيذ الإسبانى المثلج (السانجريا) .

وقد اهتم الإسبان بصورة خاصة ، بالمحافظة على الطابع القديم لمطاعمهم وحاناتهم ، فأصبح هذا النوع أهم الأمكنة المفضلة لدى السياح . وقد دعيت إلى مطعم من هذا النوع تحت الأرض فخيل لى وأنا أهبط سلالم لا تنتهى أننى أدخل إلى سجن أو فى أحسن الأحوال إلى حمام شعبى قديم ، فقد كانت الجدران مبنية بحجارة سوداء كبيرة فيها نتوءات كثيرة ، ثم يأتى الطوب والطين والنوافذ ذات القضبان

الحديدية . ويتناول الرواد الطعام على موائد خشبية عتيقة ، لكنها نظيفة وفى أوان فخارية .

وزرت حانة ليس فيها إلا بعض الموسيقى والغناء ، وكانت مؤلفة من أروقة ضيقة وحجرات صغيرة مظلمة والشراب الوحيد الذى يقدم فيها هو النبيذ المثلج الممزوج بالسكر ، والزينة الوحيدة على جدرانها هى الخناجر والمسدسات وبراميل النبيذ ! وقيل لى ! إن هذه الحانة كانت فى القديم مأوى اللصوص والمجرمين وقطاع الطرق ، وهى فى حى ضيق من أحياء المدينة القديمة أرضه مرصوفة بالحجارة وبيوته تفوح منها رائحة التاريخ ! ومع هذا يفد السياح اليها أفواجاً أفواجاً . أما الملاهى الأخرى فبعضها أوروبى الطراز ، وبعضها عربى الطراز ، وقد نقلت نقوشها من المنشآت العربية فى الأندلس بما فيها عبارة «ولا غالب إلا الله» وتشترك هذه الملاهى كلها فى تقديم الرقص الإسبانى الذى جاء الغجر به إلى إسبانيا .

كنت أعيش حلماً

لست أدرى لماذا أحسست بالرعشة وأنا أصغى وكأننى فى عالم آخر – إلى دليلى يقول لى : نحن نمر الآن فى شارع القلعة !

كنا لا نزال فى مدريد نرتب رحلتنا إلى الأندلس . وكان دليلى يحاول إقناعى بأن نسافر فى الليل .

الحر شديد جدًّا . والمسافة إلى قرطبة لا تقل عن أربعمائة كيلو متر ، إن الشمس ستشوينا شيًّا !

وأذكر أننى لم أقل شيئاً . فكلمة القلعة « لا تزال تملأ أذنى وتشد تفكيرى إلى أمر واحد : يجب أن أرى كل شىء . كل شبر من هذه البلاد التى كان العرب الزاحفون من مصر ومن سوريا ومن بلاد عربية أخرى فى المشرق والمغرب يملئونها ذات يوم ، والتى كانت طريقهم إلى « بواتييه » فى فرنسا .

كنت أحلم . لكننى كنت أعيش حلمى .

كنت أرى أشياء كثيرة . أرى الجياد العربية تملأ الطرقات . أرى الدمقس العربى يتهادى فى الشوارع ، أرى المناديل الحريرية تلوح من بعيد !

القلعة !

أجل . . كانت قلعة . وكانت القلعة عظيمة . وكانت أمجادها خالدة . إن العالم بأسره يزحف اليوم يرى هذه الأمجاد . إن ملايين البشر تمر بشارع القلعة – وهو اسمها بالإسبانية أيضاً – فى طريقها إلى الأندلس ثم ترجع مبهورة مشدوهة وتعبر مرة أخرى شارع القلعة وتترك كل شىء خلفها لتضيع فى ملاهى مدريد دون أن يبقى فى ذاكرتها سوى النقوش العربية تراها وراء ثوب راقصة غجرية ، ومن خلال ضباب لفافات التبغ ، وفى جو تفوح منه رائحة النبيذ .

وأحس بيد الدليل تربت كتفى !

– هل تسمعنى ؟

وأصحو وأبتسم نصف ابتسامة .

أجل أسمعك . .

ويعيد الدليل الكرة .

– هل نسافر فى الليل لكى نصل قرطبة فى الصباح الباكر ؟

وأجيب بصراحة :

– لا يهمنى أن أهرب من الحر . أريد رؤية طبيعة البلاد . أريد التوقف حيث يجب أن أتوقف ، أريد الاجتماع إلى الناس . التحدث إليهم . قد تلهبنا الشمس بسياطها ، قد تشوينا ، لكنها لن تميتنا ، فلسنا ذاهبين على أقدامنا !

وأشعر بأن الرجل ينظر إلىّ مشفقا من أعماق قلبه ، ربما تصورنى

مجنوناً فهو يحرص على راحتى التى تريحه هو أيضاً . وأنا أرفض ماذا فى الطريق ؟ . . إنه يعرف كل متر فى الأربعمائة ألف متر التى سنقطعها إلى قرطبة . وقال لى : إنه نام أكثر من مرة وهو يطوى هذه المسافة الطويلة .

ولم أعلق على قوله . فلا يمكن تفكيرى وتفكيره أن يلتقيا ، هو يرى فى الطريق مسافة مرهقة فى حر قاس لا يرحم . وأنا أرى فى كل متر منها فرسخاً من التاريخ . من تاريخى !

ويحاول محاولة أخيرة :

– هل أنت مصمم ؟ . .

وأهز رأسى وأجيب :

– نبدأ رحلتنا فى الساعة السادسة صباحاً . أو فى الخامسة إذا شئت ونصل إلى قرطبة قبل اشتداد الحر .

وينفجر ضاحكاً :

– لكى ترى كل شىء يجب أن نسافر فى السادسة . وسنكون فى قرطبة فى الساعة الثانية عشرة تقريباً إذا لم نتوقف فى الطريق . وسيبدأ الحر الشديد – وكنا فى شهر أغسطس – فى حوالى الساعة الثامنة اتفقنا ؟ !

– اتفقنا .

– إذن سأذهب لأنام قليلاً وسأوافيك فى الفندق فى منتصف السادسة . حاول ألا ترتدى من الملابس إلا أقل ما يمكن .

وذهب لينام . وتركني بلا نوم !

لقد حاولت إغماض عيني دون جدوى . حاولت العمل بالنصيحة القائلة : عد إلى المائة . . فعددت إلى الألف ولم أنم ، قرأت لأجتذب النعاس فما اجتذبت إلا اليقظة ! كانت مخيلتى تنتقل بى بسرعة عجيبة : فهى مرة فى قرطبة ، ومرة فى دمشق . ومرة فى القاهرة . ومرة فى الأندلس كلها . . ومرة أخرى فى أندلسى أنا كما أتخيلها منذ سبعة قرون . قرأت كثيراً عن الأندلس لكن قراءاتى كلها لم تفلح فى إعطائى صورة صادقة عن البلاد التى أنا مقبل على مشاهدتها .

كنت أحاول جمع أجزاء من هنا وهناك ، ثم أحاول تعطيل تفكيرى لعل فى ذلك سبيلاً إلى النوم . لكن تفكير الإنسان أقوى من إرادته أحياناً . إن تمرده يحطم كل قيد . ويسخر من آلاف الأميال . وأستسلم !

أستسلم لهذا الشىء الغامض الذى يسيطر على كل جزء من كيانى ، وأعود إلى القراءة . ويمضى الوقت وأحس بالتعب ويتثاقل جفناى وأغفو !

دقائق خمس فقط . . ثم أستيقظ على جرس الهاتف وأسمع صوتاً بدا لى كأنه آت من أغوار عميقة !

– صباح الخير . الساعة الخامسة . .

وأتذكر أننى طلبت إلى موظف الفندق إيقاظى فى الخامسة ، فأنهض متثاقلاً . . منهكاً لو أن الأرق ظل يطاردنى لكنت أحسن حالاً . . أما

الآن بعد غفوة الدقائق الخمس فإننى أشعر بجسمى كله كما لو كان محطماً ! .

لكننى ذاهب إلى الأندلس . هذا الواقع فى ذاته كان منعشاً .

وأحلق ذقنى بسرعة ، وأرتدى ثيابى بسرعة ، وأهبط السلم بسرعة متجاهلاً المصعد ، ثم أفاجأ بدليلى . ينام على أحد مقاعد ردهة الاستقبال فى الفندق .

هل مضى وقت طويل عليك هنا ؟

ويجيب الرجل وهو يتثاءب .

– أبداً . . وصلت منذ دقائق عشر . .

– موعدنا من منتصف السادسة .

– لذلك لم أطلبك لحظة وصولى . وجدت أن عشر دقائق تستحق النوم . وكذلك السائق .

وأشار إلى كنبة طويلة كان سائق السيارة يستلقى عليها وينام ملء جفنيه كالملائكة . وأحسست بالغيظ ينهشنى لقد قضيت ساعات أغالب الأرق . وهذان الاثنان اللذان ناما طوال الليل يستغلان عشر دقائق ليواصلا النوم !

فى بلاد الأجداد

فى الساعة السادسة تماماً انطلقت السيارة بنا .

كانت شوارع مدريد مقفرة تماماً ليس فيها إنسان واحد وكأنها خلت من سكانها . وكان الجو رطباً يزيد من الإحساس برطوبته الهدوء الشامل . والسكون الذى لم يخرج عن طاعته سوى محرك السيارة .

وخرجنا من مدريد . نحن الآن فى الطريق إلى الأندلس .

إننى لا أتكلم . فى عينى جوع عجيب لكل ما أرى أمامى .

يقع بصرى على حجر ضخم فأتصور أن العرب أقاموه حيث هو ! أشاهد قرية صغيرة فأتصور أن العرب هم الذين بنوها فى هذا المكان . يصافح نظرى شروق الشمس فأحلم بالشرق حلم اليقظة !

بين حين وآخر كان دليلى يضع كلمتين فى أذنى فأهز رأسى وأهمهم . . إن أى كلام عن غير العرب لا يثير لى أى اهتمام .

وفجأة أرفع جهاز التصوير ، وألتقط صورة . وينظر دليلى فى اتجاه العدسة فلا يجد شيئاً سوى الطريق وبعض أشجار الزيتون على جانبيه . فيسألنى مستغربا :

– هل رأيت شيئاً ؟

وأضحك وأنا أجيب :

– لا ، كل ما هنالك هو أننى تصورت نفسى فى طريق «أريحا» .

ثم أشرح له ما هو طريق أريحا بالنسبة إلى ولماذا ذكرنى الطريق هنا بالطريق هناك .

ونتوغل فى سهل منبسط لا نهاية له ، وليس على جانبيه سوى أشجار الزيتون حيناً وكروم العنب حيناً آخر .

ثم تظهر الجبال .

ومرة ثانية ألتقط صورة ومرة ثالثة أجيب عن سؤال دليلى :

– لو أنك جئت إلى بلادنا لعرفت لماذا ألتقط هذه الصور ؟

ويضحك الدليل ثم يقول :

– نحن الآن قد دخلنا حدود الأندلس . . إنك فى بلاد أجدادك !

وتقرع الملاحظة رأسى قرعاً عنيفاً : بلاد أجدادى ؟ . لماذا اختار أجدادى هذه البلاد بالذات ليودعوا فيها أروع روائعهم ؟ . لماذا اختاروا هذه البقاع التى فيها شبه عجيب بالبقاع التى انطلقوا منها ؟ لماذا أقاموا فى قرطبة وحدها ٣٨٧٧ مسجداً و ٩١١ حماماً . و ١١٣٠٠٠ مسكن لأبناء الشعب وحدهم ؟ . ثم ، هل هذه الأرقام التى وردت فى كتب المؤرخين صحيحة ؟ وإن كانت صحيحة فأين ذهب القوم كلهم ؟ إن قرطبة لا تحوى اليوم أكثر من مائتى ألف نسمة : ولو بقيت البيوت على ماكانت عليه لسكن الآن كل فرد تقريباً فى بيت !

لكن . . لماذا نحوم الآن حول جنبات التاريخ ؟ .

إننا نقرأ صورة الماضى من خلال صورة الحاضر. وفتات الحاضر لا تزال الرءوس تنحنى له . . بل إن هذه الرءوس التى تلتقى من مختلف أنحاء العالم ، تحاول هى أيضاً تجميع أجزاء الصورة ولا تملك إلا أن تذهل وإلا أن تصيح : يالها من عظة !

ونمر بالقرى وأمد يدى إلى بناء ضخم ظاهر فى إحدى هذه القرى وأسأل : ما هذا ؟ . .

ويأتينى الجواب من الدليل : قلعة عربية !

ويتحرك جهاز التصوير. وما أكثر ما تحرك !

ما أكثر القلاع التى بدأت تفتح أمامى أبواب التاريخ ! وما أكثر ماارتفع رأسى إليها ! إنها كلها مبنية فى الأماكن المرتفعة. كان العرب يختارون أعلى هضبة ، وأعلى قمة ، فيبنون عليها قلعتهم لتسهل عليهم مراقبة الطرقات والسهول ، وليأمنوا غدر الغادرين !

وقد ظلوا فى قلاعهم آمنين ، حتى نامت عيونهم !

وألقى نظرة حزينة إلى كل من هذه القلاع . إلى كل برج من أبراجها يخيل إلى أن الأبراج متشحة بالسواد ، صامتة صمتاً مرعباً . فكأن فى وسع كل حجر من حجارتها أن يروى قصة ، كأن فى وسع كل لبنة من لبناتها أن تكون حجر أساس لعصور متلاحقة من نور. لكن تحولت إلى رحى يطحن التاريخ طحناً !

وأستدرك : بالرغم من هذا لم تستطع الرياح أن تذرو ذرات

التاريخ . ما فائدة التاريخ ؟ وما نفعه ؟ لقد تجمعت ذراته الآن لتكون جسراً بين الماضى والحاضر . إننى أعبر اليوم هذا الجسر . إننى ألتقى عبره وما صنعت أيدى الرجال الذين انطلق النور معهم من آسيا وأفريقيا إلى أوربا ! إنى الآن على الأرض الأوربية . وهذه قلاع بلادى . قلاع قومى لا تزال شامخة ثابتة لا الأيام استطاعت النيل منها . ولا الحروب استطاعت محوها ، ولا الإنسان جرؤ على التطاول إليها . مئات الألوف يمرون من هنا . ويرفعون رءوسهم كما رفعت رأسى ويسألون كما سألت : ما هذا ؟ . فيأتيهم الجواب فوراً : قلعة عربية !

أطلال حية !

أجل . . قلعة عربية . واحدة من القلاع القائمة منذ ألف ومائتى سنة . الأيدى التى بنتها أيد عربية . الرجال الذين حاربوا فيها من الأمة العربية . والانتصارات التى أحرزت فيها انتصارات عربية !

اليوم : هى صامتة ، لكنها من خلال صمتها تهدينا إلى الطريق التى سار عليها أجدادنا . ومن خلال الطريق نهتدى إلى الأخطاء التى ترَدوا فيها !

وبينما كانت السيارة منطلقة بسرعة كبيرة والرياح الساخنة تكاد تكتم أنفاسنا — وجدتنى فجأة أصيح بالسائق :

— قف :

وقطع السائق شوطاً طويلاً قبل أن يتسنى الوقوف له ، وراح ينظر إلى

بدهشه كبيرة . لم أبال بدهشته ؛ فقد كنت فى نشوة يتعذر عليه فهم سببها .

أشرت إليه لكى يعود قليلاً إلى الوراء ، ففعل على حين راح الدليل الذى يرافقنى يجول ببصره هنا وهناك بحثاً عن الشىء الذى دفع بى إلى طلب التوقف المفاجئ .

كنا أمام حديقة صغيرة .

ودون أن أنطق بحرف واحد نزلت من السيارة ، وانطلقت إلى الحديقة .

هذا النوع من الحدائق ليس غريباً عنى ! لقد صُنعت الخمائل فيها على شكل أقواس عربية . والبركة الصغيرة تحتضن فسقية ينفر الماء منها رشيقاً عالياً . والمقاعد التى تظللها الأشجار والنباتات المتسلقة ، مكسوة كلها بالبلاط الذى نسميه « القيشانى » وعليه نقوش عربية !

وثمة بركة أخرى أشبه ببركة السباحة تتجدد المياه فيها باستمرار ، وتتخذ هذه المياه لون البلاط الأخضر الصافى الذى رصف قعرها وجوانبها به ، والزهور والورود منتشرة فى كل مكان . ورأيت كهلاً يقترب منى .

لم يستغرب وجودى على أرضه ، أو على الأصح داخل حديقته . . بل رحب بى بحرارة ، ودعانى إلى « الحوش » . . أى إلى صحن البيت .

وسرت نحو « الحوش » وأنا شبه مذهول . كان نظامه لا يختلف ونظام

أى «حوش» فى أية قرية من قرانا . الباحة الواسعة خلف المدخل . والغرف الخاصة بالسكن . وعلى مقربة منها حظائر الحيوانات . والكراسى المصنوعة من الخشب والقش وشجرة العنب أو «الدالية» التى تبسط ظلها على غرف السكن وتتدلى عناقيد العنب منها ناضجة شهية . ثم النساء اللواتى يمددن رءوسهن من خلف الباب ليرين من القادم ؟ وعلى وجوههن أمارات خفر شديد وتردد طبيعى . والرجال الذين يقفون أمام الأبواب يحمون نساءهم ويبتسمون للضيف ابتسامة فيها من الترحيب والرغبة فى التكريم . أكثر مما فيها من الحذر والانكماش !

وكنت قد أحسست بعطش عنيف . فسألت أحدهم ماءً . فأسرع كما لو كان إبطاؤه يعتبر إهانة لى أو له . وجاءنى بإناء من الفخار ذى نتوء مجوفة فى وسطه شبيهة أيضاً بالأوانى التى نستخدمها فى قرانا ولم يكن مع الإناء كأس . ولم يكن معقولاً أن أضع فوهة نتوئه على شفتى لكى أشرب ، فرفعته إلى أعلى وتركت الماء ينصب فى حلقى حتى ارتويت !

ولما أعدت الإناء إلى الرجل شاكراً وجدت على وجهه ابتسامة كبيرة . ثم ما لبث أن قال :

– لابد أن تكون عربيًّا !

ودهشت :

– هذا صحيح ! إنما كيف عرفت ؟

واتسعت ابتسامته وهو يجيب :

-- نحن هنا نشرب بالطريقة التي شربت بها ، ولا يستطيع الشرب بهذه الطريقة إلا العربي والأندلسي . وأصر الرجل على أن يكرمني وأن يستضيفني على الغداء ، ولكني اعتذرت . وقلت له : إنني مضطر لمتابعة الرحلة فوراً ضماناً للوصول إلى قرطبة في الوقت الملائم . فظهر الأسف الصادق على وجهه . ورافقني ومعه أفراد أسرته جميعاً إلى السيارة وودعوني بحرارة عجيبة وكأنني واحد منهم !

وانطلقت السيارة بنا من جديد .

إن الأربعمائة كيلو-متر التي تفصل بين مدريد وقرطبة قاربت نهايتها .

إنني أشعر بأن المنطقة ليست غريبة عني . الحقول التي أراها على جانبي الطريق ، الفلاحون الذين يجلسون على أكداس الأغصان الجافة تحملها الحمير ، الأشجار التي تحف بالطريق ، الشمس الحادة في سماء نقية صافية ، الناس الذين يقطفون الزيتون أو العنب . رائحة الأرض التي يعرفها كل من زار قرية من قرانا .

والتفت إلى الدليل ، فوجدته نائماً .

وعدت إلى نفسي أعيش مع أحلامي : ما الذي سأرى في قرطبة ؟

قالوا لي : هناك المسجد ، والقصر ومدينة الزهراء .

هل يمكن أن يكون هذا كل شيء ؟

والشوارع ، والبيوت والناس ، هل تبدلت كلها ؟ إن ألفا ومائتي سنة لا تكفي محو مجد كامل . فالمجد الحقيقي هو المجد الذي يبقى ، والذي

يتحدى ، والذى يصارع الزمن ويقهر الفناء ، وتلوح أمامى من بعيد مدينة بيضاء رشيقة . كحمامة سلام فأوقظ دليلى وأصيح به :

– قرطبة ! . .

ويفرك الدليل عينيه ، ويجيب بالإسبانية :

– سى سنيور . . جورد با !

ثم يلقى نظرة على ساعته ، فيجد عقاربها تشير إلى الواحدة .

– سنذهب إلى الفندق لنستريح ونتغدى .

– واستدرك بسرعة :

– وبعد الغداء نبدأ العمل فوراً .

وينظر مذعوراً :

– الحر شديد ألا تريد أن تنام قليلاً ؟

– الليل أمامنا نستطيع أن ننام بقدر ما نحن فى حاجة إلى النوم .

ويهز الرجل رأسه ويصمت ، لكن تقاطيع وجهه هى التى تتكلم . أية مصيبة دفعت بى إلى المجىء مع هذا المجنون ؟

وأشفق عليه . إنه فى حوالى السبعين من عمره ، وهو إنسان مهذب جدًّا . لكنه لا يستطيع الصبر على الجوع طويلاً ولا التعب كثيراً .

تمسك الأرض أن تميد

وندخل قرطبة البيضاء . وتتهادى السيارة فى شوارع المدينة التى كانت عاصمة الخلافة الإسلامية فى الأندلس .

إن الإسبانيين يؤكدون أن جو قرطبة رائع وصحى جدًّا . لكنها فى الصيف شديدة الحرارة . وقرطبة تتوسط جبال «سييرا مورينا» والنهر المسمى «الوادى الكبير» وتنطق بالإسبانية «جواد اليكفير» .

وأشعر بأنى أتحسس طريقى فى هذه المدينة التى عرفت أمجاداً خالدة ، ثم تحولت إلى شبه قرية . وأذكر قول شوقى رحمه الله :

لم يسر عينى سوى ثرى قرطبى ... لمست فيه بجدة الدهر خمسى
قرية لا تعد فى الأرض كانت ... تمسك الأرض أن تميد وترسى !

لكننى أبعد خيبة الأمل عن تفكيرى .

إن كثيراً من أحياء المدينة لا يزال قائماً ، إن كل حى ، كل زاوية ، كل أثر ، كل ذرة من التراب لها حكايتها ! لقد تحول بعض الحكايات إلى أساطير ، لكن الأساطير لا تقف على قدميها أمام الواقع وأمر على مقربة من جسر رومانى .

هذا الجسر جزء من الواقع : إن كانت مياه الوادى الكبير لم تذهب به – فهل تذهب الرياح بهذه المئذنة السامقة التى تعتبر أبرز معالم قرطبة ،

وأول شيء يقع عليه نظر القادم إلى المدينة ؟ أليست هذه المئذنة واقعاً آخر ؟ ألا تهدى الناس إلى أكبر المساجد التي بناها العرب فى قرطبة ؟ إلى واحد من مئات المساجد التى كانت المدينة تمتلئ بها ؟

شعور غامض بدأ يحركنى كالآلة : أريد الوصول إلى هذا المكان الذى قطعت آلاف الأميال لأصل إليه !

ونغادر الفندق ، ونتجه نحو المسجد الكبير : مسجد قرطبة . .

وأنزل من السيارة ، وأندفع إلى باب المسجد . . ثم . .

لا . . لا يمكن أن أكون فى هذه اللحظة بالذات فى إسبانيا .

جلت ببصرى فى أرجاء المكان كله . . وحدقت فى الوجوه المنتشرة هنا وهناك . ووقفت لحظة وأنا شبه مشدوه . .

قالوا لى : إنك تدخل من باب الغفران !

قلت : إننى أدخل إلى صحن المسجد الأموى فى دمشق . أو المسجد العمرى فى بيروت أو مسجد القلعة فى القاهرة .

وفى لحظة واحدة ضاع الزمن ، فقدت إحساسى بأننى فى بلد اسمه إسبانيا !

الباحة الكبيرة التى تظللها أشجار البرتقال ، وتخفف برك المياه من حرارتها القاسية .

المئذنة الضخمة الشامخة ، النقوش العربية الرائعة ، الزجاج الملون الذى يعلو نوافذ الأبواب فى أشكال هندسية بديعة ، الأقواس العربية

الدقيقة . . مشاهد كلها مألوفة بالنسبة إلىّ .

وتصورت باحة المسجد ملأى بالمصلين . رأيت الألوف من سكان قرطبة لا يزالون يفدون إلى المسجد ليلتقى بعضهم وبعض . رأيت العرب من البلاد المجاورة يلتقون فى هذا المسجد على الإيمان وعلى العبادة ، ويتجهون إلى الله بالشكر على ما أفاء عليهم من نعمة النصر !

ورفعت رأسى إلى المئذنة ، فوجدت الأجراس تطل من شرفتها العليا حيث كان المؤذن يكبر باسم الله ، ويدعو عباده إلى الصلاة .

ثم عدت بذاكرتى قليلاً إلى التاريخ الذى يقول : إن المدينة كانت مجرد طاحون من طواحين الزيت بناها الفينيقيون وأطلقوا عليها اسم «كورتب» ثم تحولت الطاحون إلى بلدة صغيرة فإلى مستعمرة رومانية غنية ، فإلى قرية من قرى طليطلة ، حتى جاء العرب فاختاروا لها اسم «قرطبة» وجعلوا منها عاصمة من عواصم المسلمين !

ويضيف التاريخ : من هنا انطلقت الجيوش العربية وراء جبال «البيرينيه» وكادت تستولى على أوربا !

وهنا اجتمع ثمانون زعيماً من زعماء القبائل السورية والمصرية ، واتحدوا وتعاونوا .

وهنا ! ازدهر الحكم العربى ، حتى لقد عرفت قرطبة عهداً لا مثيل له : عرفت الحضارة والعظمة ، عرفت الغنى والرخاء . عرفت المجد والقوة . ولما بدأ عبد الرحمن الأول بناء المسجد الكبير فى قرطبة كان

يريده أثراً جباراً من آثار الشرق .

لقد كان سكان قرطبة ذات يوم يعدون ثمانمائة ألف نسمة . وكانت تتربع على قمة عالية من قمم المدينة .

ولا أستطيع أن أتخيلها إلا كما كانت : الفنون العربية الأصيلة التى ترهف من الحس البشرى ، العلوم العربية المتقدمة التى ترفع من قيمة الإنسان ، الأيدى العاملة العربية التى تضاعف رخاء الشعب وتملأ أرضه بالخير . تنبت الحقول ، وتصلح الأرض ، وتبعث الخضرة خيّرة كريمة فى السهل والجبل !

من سنة ٧١١ للميلاد بدأت قرطبة – التى فضلها العرب على أشبيلية – تصعد وتصعد . وفى سنة ١٠١٠ انتهى الصعود وبدأ الانهيار .

وأترك تفاصيل هذا الموضوع التاريخى نفسه ، وأكتفى بفقرة واحدة منه لا تزال تتردد إلى الآن على ألسنة الغربيين .

– إن حكم الغرب لهذه المناطق أساء إليها إساءة أكبر . لقد أهمل الغربيون الصناعة والزراعة . وأهملوا أساليب الرى الرائعة التى نظمها العرب . فدمروا قرطبة !

وأرفع رأسى مرة أخرى إلى المئذنة . وأحمد الله على أنها لا تزال هنا قائمة شامخة .

وسط غابة فريدة

وأتابع طريقى إلى داخل المسجد . . أكبر مساجد العالم الإسلامى بعد مسجد مكة المكرمة .

لقد بدأ بناء هذا المسجد سنة ٧٨٥ فى عهد عبد الرحمن الأول . وتابع بناءه ابنه هشام الأول بعد وفاة عبد الرحمن (٧٨٨) . ثم تولى عبد الرحمن الثانى سنة ٨٣٣ توسيعه نحو الجنوب واضطر إلى تأخير محرابه . ثم استمر توسيع المسجد حتى نهاية القرن العاشر . وقد تولت بناء المسجد فى مختلف مراحله أيد دمشقية وفق مخططات قاهرية : أى بالتعاون بين العرب السوريين والمصريين فى قرطبة .

وأدخل المسجد . وأحس برعدة تجتاحنى من رأسى إلى أخمص قدمى !

لا يمكن أن يكون هذا الذى أراه حقيقة !

إنه رؤيا من رؤى الأحلام ! إن النظر ليتيه وسط غابة من الأعمدة يبلغ عددها ٨٥٠ عموداً (وكان العدد ألف عمود !) . وإن الإنسان ليحس بضآلته وهو يشاهد أقواس المرمر فوق رأسه تمتد أمامه على مدى النظر .

وأمضى فى الغابة . ويمضى صمتها وهدوؤها : لا حفيف ورق ، ولا

اهتزازة شجرة ، ولا تغريد بلبل ، ولا حتى نعيب بوم ! ولا شيء سوى الهدوء . لا شيء سوى برد عجيب ونحن فى لظى القيظ ! لا شيء سوى نداءات بعيدة من الأغوار السحيقة !

كم من الناس بلّ عرقهم تراب هذا المسجد العظيم ؟ كم من الناس دميت أصابعهم وهم يقيمون دعائم هذا البيت العظيم ؟ كم من الناس يستطيعون الاعتزاز اليوم باعتزاز أجدادهم بما بنوا ؟

وأمر تحت الأقواس ، وأحس بها أقواس نصر . وتستهوينى رشاقة الأعمدة وأناقتها ورقتها .

إن بعضها قد تداعى . وحاولوا فى عصرنا المتقدم هذا – ترميمها فما استطاعوا إعادة رشاقتها العربية إليها .

هذه الغابة المسقوفة أدهشت العالم ! هذه الألوان الهادئة المريحة تشعرك بالرهافة العجيبة التى توصل إليها الذين انتقلوا من شرق المتوسط إلى غربه بلا سيارات ولا طائرات ولا دبابات ! وبالرغم من ذلك نقلوا المرمر الملون من القسطنطينية وفرنسا ومن المعابد الرومانية فى أفريقيا ، ولا سيما فى قرطاجة .

هذا المحراب المزدان بالنقوش المذهلة ، وبالآيات الكريمة . لم يبن لكى يقف الإمام فيه فحسب . . بل بنى لكى يسمع كل من فى المسجد صوت الإمام دون ما حاجة إلى أى جهاز من أجهزة تكبير الصوت .

إن مشكلة توزيع الصوت من أكثر المشاكل المعقدة التى يعانيها

العصر الحديث لكن العرب حلوا هذه المشكلة ببساطة منذ ألف سنة !

وأرفع رأسى إلى القبة التى تعلو المحراب ، ثم أرتد ببصرى مسحوراً . . إن أى فنان مهما بلغ من براعة ودقة لا يستطيع اليوم صنع مثل هذه الفسيفساء المنسجمة بألوانها ، وبدقة تنسيقها انسجاماً لا يزال موضع دهشة العالم .

ورأيت كثيرين فى المحراب : بعضهم عيونه معلقة بالقبة العجيبة ، وبعضه الآخر جلس ليرتاح قليلاً قبل العودة إلى التمتع بآيات الفن العربى .

وفجأة !

أسمع همهمة كبيرة ودعاءً عميقاً . وتدوى فى أذنى صيحة نافذة : الله أكبر . وتتردد الصيحة فى أنحاء المسجد كلها . ويتردد صداها فى ألوف الحناجر .

لقد امتلأ المسجد بالمصلين .

إنهم كلهم يحنون رءوسهم للقاهر الجبار . يجتمعون على الإيمان . على عبادة الله . يتوجهون إليه بالشكر . يؤمنون بأن عظمة الإنسان من عظمة الله .

الله أكبر . . ولله الحمد .

أجل . .

لولا إرادة الله ما صنعنا ما صنعنا . لولا الإيمان الذى يملأ صدورنا

ما وصلنا إلى حيث وصلنا . لولا الحب الذى ملأ الله به قلوبنا ما انتصرنا بقدر ما انتصرنا ، وما بقيت آثارنا تشهد على انتصاراتنا ، وما بقيت مدنيتنا تتحدى المدنيات والأجيال والفناء !

ويتلاشى الصوت الكبير وتتلاشى همهمة الألوف . ويعود الصمت . وأحس بالبرد من جديد !

هل يفتح العرب عيونهم كما فتحوها فى الماضى ؟ هل يلتقون وينتصرون كما التقوا وانتصروا فى الماضى ؟ هل يملكون وضع أسس مدنيتهم وحضارتهم وعظمتهم كما فعلوا فى الماضى ؟

هذا المحراب الذى يتجه إلى الكعبة . . كان هنا قرآن مغلف بالذهب . محاط باللآلى والجواهر ، قائم على حامل من الخشب النادر والعاج . مغطى بالحرير !

وهذه المقصورة إلى جانب المحراب . .

أمراء الأندلس كلهم جلسوا هنا ، صلوا هنا ، ضيوفهم من عظماء المسلمين جاءوا إلى هنا . لقد كان عرب الأندلس يحجون إلى مسجد قرطبة الكبير الذى كان ولا يزال معجزة الفن ومعجزة الصحراء !

لكن . . ويل للمنتصر حين تغفو عيناه وتتمزق وشائجه ! إن الهزيمة تلحق به وبآثاره كلها .

بعد سنة ١٢٣٦ م حين استرجع الملك فردينان القديس قرطبة — بدا إغلاق أبواب المسجد ، وبدأ نزع بعض أعمدته لتحل محلها كنائس

سعرية متعددة . وتطور هذا الوضع وخاصة سنة ١٥٢٣ حتى كاد المسجد كله يتلاشى . فثارت ثائرة المجلس البلدى فى قرطبة ، واستنجد بشارل الخامس ، فهدد شارل الخامس (شارل دى كنت) يومها بإعدام كل عامل يسهم فى تهديم مسجد قرطبة الكبير ، وقال :

إن الذى تدمرونه لا تستطيعون بأى شكل من الأشكال صنع بابل له يرقى إلى مستواه . ولما جاء شارل الخامس إلى الأندلس بعد ذلك بسنوات ثلاث . وزار المسجد — أعرب عن استيائه الكبير وقال للقسس :

— لو كنت أعرف ما تريدون أن تفعلوا ما سمحت لكم به منذ البداية . ذلك لأن ما أقمتم يمكن أن يوجد فى أى مكان . أما ما كان لديكم قبل ذلك فلا مثيل له فى أى مكان ! .

وبالرغم من هذا فإن مسجد قرطبة الذى تبلغ مساحته ١٧٥ متراً من الشمال إلى الجنوب ، و١٣٤ متراً من الغرب إلى الشرق ، وترتفع أسواره إلى ثمانية أمتار وبعض المتر لا يزال قائماً إلى يومنا هذا ، ولا يزال الجزء الأكبر منه سليماً ، ولا يزال محتفظاً برونقه وجدته وبألوانه الهادئة المنسجمة ! وتذكرت وأنا أغادر المسجد الجامع فى قرطبة قول صديق فى مدريد :

— لن نستطيع رؤية الآثار العربية دون أن تبكى !

لقد احتل العرب النصف الجنوبى من فرنسا من شرقيه إلى غربيه . .

وكان يمكن أن يصلوا إلى أبعد من ذلك . لكنهم كلما سجلوا انتصارا تراجعوا لإخماد ثورة من ثورات الحاقدين الطامعين .

مع هذا بقيت الأندلس مشعلا ينير طريق العالم !

ولئن أدت الخلافات والصراعات إلى انحسار المد العربي عنها فإن ما بقي جدير بأن يدفعنا إلى وعي واقعنا وعيا حقيقيا . . فالمجد لا يبنى على القبلية . ولا على النزاعات الأموية والعباسية وإنما يبنى على الشعور العربي ، وعلى الإحساس العميق بالانتماء إلى قومية معرضة دائما لفتك النزاعات الإقليمية والمصالح الذاتية !

أسطورة الزهراء

وأرفع رأسي إلى منارة المسجد وأنا أجوز عتبته وأتساءل :

– هل هذه هي المنارة العظمى ؟ . .

كانت المنارة أو المئذنة تمتاز بفخامتها وبارتفاعها . أما هذه فليست سوى برج قزم ليس بينه وبين شاهقات عبد الرحمن أية صلة !

وأصغي إلى التاريخ مرة أخرى . .

هذه المنارة كانت مربعة الواجهات ، لها أربع عشرة نافذة ذات عقود تحتوي على سلمين : أحدهما للصعود والآخر للنزول . ركبت في قمتها ثلاث تفاحات كبيرات : اثنتان منها من الذهب ، والثالثة من الفضة . فإذا أرسلت الشمس أشعتها عليها كادت تخطف الأبصار ببريقها !

اليوم : لم يبق إلا جزء يسير من المنارة المربعة ، وقد تحولت إلى برج للأجراس !

وأغادر المسجد ، وألف حول سوره الكبير . وتدهشني الحارات الضيقة التي كانت وقفا على تلك الحقبة من الزمن . . وكانت الغاية منها مقاومة الغزاة !

وتدهشني نوافذ البيوت المتقاربة ، وما تزدان به من زهور .

وتدهشني المساحات الصغيرة حيث تلتقي الحارات الضيقة وتزدان ببرك المياه ، وبأشجار الليمون والبرتقال . وتحت الأشجار مقاعد رواقها الوحيد النقوش العربية . . وتدهشني أكثر وأكثر الأحجار الكروية والمربعة التي ترصف بها جوانب الساحات . . وأعجب لهؤلاء القوم الذين ذهبوا إلى الأندلس فما أشادوا إلا طرازات تذكرهم بمواطنهم التي غادروها ، وأقاموا بعيداً عنها منتصرين ! بل إن عبد الرحمن الداخل كان يسمي قرطبة «الحاضرة الأموية الجديدة» ! وعلى هذا الأساس حصنها ، وزينها بالمنشآت الضخمة والرياض اليانعة . وأصلح من سورها الروماني ، وجعل اسمه «القنطرة» كما أنشأ ضاحية تليق حاضرة ملكه . وأقام فيها قصراً فخماً تحيط به حدائق زاهرة ، وجلب إليها العروس والبذور من الشام وأفريقيا . وأطلق على تلك الضاحية اسم «الرصافة» تخليداً لذكرى الرصافة التي أنشأها جده هشام . واتخذها مقاماً ومتنزها ومركزاً للإمارة .

وكانت هذه الفترة في الأندلس فترة الهدوء النسبي ، بالرغم من استمرار الفتن والحروب . حتى إذا جاء عبد الرحمن الناصر أصبحت الأندلس ترتع في الرخاء والعظمة والمجد . وفي عهده أقيمت مدينة الزهراء على مسافة خمسة أو ستة أميال شمال غربي قرطبة في سفح جبل يسمى «جبل العروس» .

وتقول أسطورة «الزهراء» : إن عبد الرحمن الناصر ورث من

إحدى جواربه مالاً كثيراً ، فأمر بأن يخصص هذا المال لافتداء أسرى المسلمين ، ولكنه لم يجد أسرى يفتديهم ، فأوحت جاريته الزهراء إليه بأن ينشىء بالمال مدينة تسمى باسمها وتخصص لسكناها !

لكن هذه الأسطورة تبدو ضعيفة . والمرجح أن عبد الرحمن أراد أن يجعل من المدينة الجديدة المقر الرسمى لمملكة الأندلس وإلا ما احتاج إلى ٤٣٢٤ عموداً من الرخام الأبيض والأخضر والوردى جيء بها من قرطاجة ، ولا احتاج إلى أمهر المهندسين والصناع الفنيين وإلى عشرة آلاف عامل وإلى ١٥٠٠ دابة ، وإلى نحو ٦٠٠٠ صخرة فى اليوم وإلى إنفاق ٣٠٠ ألف دينار كل عام طوال خمسة وعشرين عاماً !

على أية حال لم يبق اليوم من مدينة الزهراء سوى بقايا أطلال لا تعطى فكرة عن المدينة التى كانت تشغل على حسب رواية ابن حيان مؤرخ الأندلس ، مسطحاً قدره ٩٩٠ ألف ذراع .

أما القصة التى وردت فى نفح الطيب عن هذه المدينة فتقول : «كان فى الزهراء ١٣٧٥٠ فتى و ٦٣٠٠ بين نساء وحشم يصرف لهم فى اليوم ١٣ ألف رطل من اللحم عدا الدجاج والحجل وغيرها ! » .

وأتلفت حولى وأحس بالجوع !

هل يمكن أن يكون هذا الكلام صحيحاً ؟

لقد كان السكون حولى يمزقنى . سكون مخيف يزيد من وطأة ارتفاع

درجة الحرارة . . إلا أنه لم يمنعنى عن الاهتمام بما اعتبرته «أسطورة الزهراء» .

لقد عاشت هذه المدينة ٤٠ عاماً فقط . وكان يمكن أن تعيش إلى يومنا هذا لو لم تلتهمها الحروب الأهلية ، ولو لم تدمرها الفرقة والنزاعات .

عاشت مدينة الزهراء حياة عبد الرحمن الناصر ، وعاشت كذلك حياة ابنه الحكم المستنصر ، ثم انتقل مركز الخلافة إلى مدينة «الزهراء» التى أنشأها الوزير محمد بن أبى عامر (الحاجب المنصور) على نهر الوادى الكبير ، حتى إذا كانت سنة ١٠١٠ زحفت قوات المتمردين ، فقتلت ودمرت وأحرقت لأن أجدادنا الميامين غفت عيونهم بعدم انتصارات ساحقة ، وناموا ملء جفونهم ، وأفسحوا المجال للنزاعات القبلية تفتك فى صفوفهم وتحسر مدّهم !

لقد كان من العسير على أن أنسى أن اسم قرطبة ، كان وحده كافياً لكى يبعث الهلع فى نفوس الفرنجة . فقد كان الاسم يعنى القوة والحضارة ،ويعنى فى الوقت نفسه التسامح والعدالة .

وكان من العسير على أن أنسى أن قوات العرب الفاتحين احتلت منطقة «نيس» فى فرنسا ولا يزال فى هذه المنطقة العربية حتى اليوم حى اسمه حى العرب؟!

ونفذت القوات العربية إلى مدينتى «دوفينة» و«غرينوبل» وجاورت

نهر «الأيزر»– أحد فروع نهر الرون» واحتلت مدن «بروفانس» و«سافوا» و«بيمون» ووصلت إلى سويسرا واحتلت فيها ولاية «فاليه» ومفاوز جبال «جورا» كما احتلت فى إيطاليا الشمالية ولاية «ليجوريا» .

وكانت خطة العرب تقضى باحتلال أوربا الجنوبية كلها ، والعودة إلى دمشق عن طريق تركيا ، وبهذه الطريقة يبسطون سيطرتهم على الحوض المتوسط كله .

لكن الخطة لم تحقق ؛ إذ صدرت الأوامر بتقصير خطوط المواصلات العربية وبعدم تعريضها للخطر ، وكان ثمة خلاف كبير حول وجوب المضى فى المد العربى أووقف التقدم تأميناً لخطوط المواصلات ؛ وفى رواية أخرى ، إن الخلافات الداخلية هى التى عطلت تنفيذ الخطة .

وبعض مؤرخى الغرب ينكر على العرب فتوحهم ، ويزعم أنها لم تكن أكثر من حملات ناهبة ، وغزوات عابرة هدفها الكسب والغنم . لكن لوكان هذا صحيحاً ماكانت حضارتهم فى الأندلس ، وحتى على شواطئ خليج «سان تروبيز» وفى بعض قمم جبال «الألب» الفرنسية والسويسرية . بل إن المؤرخين الغربيين لم يستطيعوا إلا أن يشهدوا للعرب بالمهارة الفائقة فى فن التحصينات والمنشآت الحربية ولم تكن هذه الشهادة لتعمر طويلاً لولا أن القلاع التى خلفها العرب فى تلك المناطق كانت أقوى وأمنع من الزمن ، ولولا أن السيوف والدروع التى عثر عليها فى مدينة «تور» الفرنسية كانت عربية الصنع ومن مخلفات موقعة «بلاط

الشهداء» التي نشبت سنة ٧٣٢ للميلاد .

وقد استطاع العرب أن يحولوا أودية إسبانيا المجدبة إلى حدائق ورياض زاهرة . حتى فى المناطق التى احتلوها من فرنسا انصرف عدد كبير منهم إلى الزراعة وإصلاح الأرض ، وجاءوا بغراس مختلفة من الشرق ، حتى ليقال إن «القمح الأسمر» الذى يعتبر الآن من أهم المحصولات الفرنسية إنما هو من مخلفات العرب ، لأنهم أول من زرعه فى فرنسا . بل إنهم أول من صنع القطران الذى يطلى به قاع السفن وهم أول من أدخل نظام المستعمرات الزراعية إلى جنوبى فرنسا ونقلوا فصائل الخيول العربية إلى هناك ، وفى بعض جهات «بروفانس» الفرنسية ، حيث استقر المسلمون بعض الزمن ، توجد أنواع معينة من الرقصات تنسب إلى أصل عربى . كذلك برز أثر العرب فى الحركة الأدبية المعروفة باسم «تروبادور» التى ظهرت فى جنوبى فرنسا وفى شمالى إسبانيا وشمالى إيطاليا أى فى المناطق التى احتلها العرب .

ويقول المستشرق الفرنسى (رينو)

– إن ذكرى الغزوات النورماندية والمجرية لا توجد إلا فى الكتب ، لكن ما السر فى أن ذكرى العرب لاتزال ماثلة فى الأذهان كلها ؟ . . يكمن هذا السر فى أن لغزوات العرب الأولى طابع العظمة ، حتى إننا لا نستطيع أن نقرأ أخبارها دون أن نتأثر بها . . فالعرب – دون النورمانديين والمجر – ساروا أشواطاً بعيدة فى طليعة الحضارة والمعارك التى

خاضوها أيام الصليبيين فى إسبانيا وأفريقيا وآسيا أسبغت بهاء جديداً على اسمهم ، كما أن الأثر الذى نثروه بقصص الفروسية فى العصور الوسطى لا يزال ملموساً إلى يومنا هذا .

ويقول المؤرخ الإسبانى موديستو لافونتى» :

– لقد تحول بلاط قرطبة إلى نوع من الأكاديمية العظيمة ، ونستطيع أن نقدر مدى التضحيات العظيمة ومدى الصبر والمثابرة والنفقات التى أمكن أن يتحقق بها إنشاء تلك المجموعة المدهشة من أربعمائة ألف إلى ستمائة ألف مخطوط هى محتويات مكتبة مقر بنى مروان . .

المعجزة الضائعة

ثم تمر فى مخيلتى الحوادث التى جاءت بعد ذلك .

هشام بن الحكم وأمه صبحة ، أو « اوردرا » النافارية . . وانتقال الحكم إلى المغامرين ، واستهتار عبد الرحمن بن المنصور ، وشغفه بحكم الطغيان والإرهاب وبالفجور والمجون ، وحصوله بالرغم من ذلك على ولاية العهد بسبب عدم وجود ولى عهد لهشام وتألب الأمويين على هشام وإرغامهم له على التخلى عن الخلافة التى آلت إلى محمد بن هشام بن عبد الجبار ، وزحف المتمردين على قرطبة ، وحصارهم لها ، ثم اقتحام المدينة والفتك بأهلها ، وتفكك عرى الدولة واحتلال يحيى بن حمود قرطبة ، ورد الأمر إلى بنى أمية .

ما أكثر الأحداث التى مرت بالأندلس ! وما أكثر المد والجزر فى تلك البقعة من العالم التى كان يمكن — لو استتب الأمر فيها واستقر — أن تكون نقطة انطلاق لنصر عظيم .

دوامة عجيبة يعيش الإنسان فيها وهو يسترجع الماضى . دوامة أشبه بعجلات السيارة التى تطوى الأرض . فى كل دورة من دورات هذه العجلات جزء من التاريخ : كرّ وفرّ . مقود السيارة واحد لكن الطرق مختلفة . تمضى السيارة أحياناً فى سهل . وأحياناً تتسلق الصخور . تسير

أحياناً فى طرق مستقيمة . وأحياناً فى طرق ملتوية وتلفها الحرارة أحياناً وتلفها البرودة أحياناً !

وأضيع فى تلك الغمرة . . فى تلك الفترة من التاريخ حينما خلف المجد دموعاً ، وانتهى الفتح إلى هزيمة !

هل كان العرب هم المسئولين ؟

التاريخ هنا ، لا يقول شيئاً . إنه يعرض وقائع فقط .

حيناً يؤخذ على العرب حلمهم وعدم بطشهم ، وحيناً يؤخذ عليهم ظلمهم وشدة بطشهم ، وحيناً يحاسبون على غفوتهم . وحيناً يحاسبون على قلة ثقتهم .

لكن شيئاً واحداً لا تناقض فيه . وهو أن العرب حققوا كثيراً . بنوا كثيراً . فتحوا كثيراً . أحسنوا كثيراً . أقاموا حضارة قل مثيلها . بهروا الغرب يوم كان الغرب يعتقد أنه وحده القادر على أن يبهر العالم ، حطموا عروشاً كان أصحابها يعتقدون أنهم أمنع من عقاب الجو . ركبوا البحر وهم لا يعرفون عن البحر شيئاً ، علموا الإنسانية شعوباً كانت تفهم الوحشية على أنها إنسانية .

وأسمع الدليل الذى يرافقنى يقول :

–كانت قرطبة معجزة منذ ألف سنة . هذه هى المدينة التى لا تزال تلقننا معنى الحضارة العربية وحقيقة الحضارة العربية .

لكن تغيب سعادتى فى ضباب الأسف والألم !

مئات الكيلو مترات أطويها على أرض عربية ، أوكانت عربية .
لكن الآثار العربية لم تندثر فيها . إن العالم كله يأتى إليها . يمعن النظر فيها . يتأمل عظمتها . ويهز رأسه :

– هؤلاء الذين جاءوا من الصحراء . . كيف استطاعوا أن يفعلوا هذا كله ؟

* * *

وترتفع حرارة الجو ، وأحس بالعرق يتصبب من مسام جسدى كلها غزيراً .

ماذا حدث ؟ لماذا ارتفعت الحرارة بمثل هذه السرعة ؟ . .

كانت حرارة قرطبة شديدة لكنها محتملة . . أما هنا . .

ويهمس الدليل فى أذنى ، وقد فتت الحر قواه :

– إننا نقترب من أشبيلية !

ولا أفهم . . فيضيف :

– ترتفع أشبيلية عن سطح البحر ١٤ متراً فقط . وهى قريبة منه . وهى أيضاً فى شبه حفرة !

وندخل المدينة التى تجسد الانحسار العربى ! .

فبعد قرطبة كل شىء إلى انحسار ! .

لذلك لم يبق فى أشبيلية كثير يثير الاهتمام .

واحد من الأبراج العربية المشهورة أطلق العرب عليه اسم « برج

الذهب» وقيل إنهم كانوا يحفظون فيه أموالهم . . وهى رواية ضعيفة .

وهناك الجامع الكبير الذى تحول إلى «كاتدرائية» ولم يبق فى إحدى زواياه سوى المئذنة التى تعرف اليوم باسم «الخيرالدا» . ويعتبر بناء هذه المئذنة فى ذاته أعجوبة . فليس فيه سلالم تنتهى إلى قمتها . إنما هناك طريق دائرى صاعد يستطيع ثلاثة فرسان على صهوات جيادهم صعوده جنباً إلى جنب . كما حدث فى مسجد قرطبة ، حلت الأجراس محل المؤذنين فى قمة الخيرالدا .

وهناك ، على مقربة من «الخيرالدا» القصر ، واسمه بالإسبانية «الكازار» . وهو قصر عربى لا يفوقه فى الروعة إلا قصر الحمراء فى غرناطة .

وكنت شديد الشوق لغرناطة التى تحتضنها جبال «سييرانيفادا» التى ترتفع قممها إلى ٣٥٠٠ متر ، وتمد المدينة بجو معتدل جميل .

وتمضى السيارة بنا ، وتتسلق طريق قصر «الحمراء» الذى بدأ ابن الأحمر بناءه سنة ١٢٤٨ وأنهاه يوسف الأول ومحمد الخامس فى القرن التالى . وتظللنا الخمائل الكثيفة ، ويصيبنا رذاذ من نوافير المياه التى صنعها العرب ، كما كانوا يصنعونها فى دمشق والقاهرة تماماً .

وأصيح بالسائق وأرجوه أن يقف . فقد تعبت من الجرى وراء التاريخ وبدا لهاثى أعنف من لهاث السيارة التى قطعت تلك المسافات الطويلة .

وألقى نظرة من مرتفعات الحمراء إلى المدينة المغلقة . وقد خلت شوارعها من البشر . وأسأل الدليل دون وعى :

– هذه البلدة خالية من السكان ؟

فيبتسم ويجيب :

– إن فيها أكثر من ١٧٥ ألف نسمة . لكن غرناطة مثل معظم مدن إسبانيا ، تنام النهار كله خلال فصل الصيف وتسهر الليل كله !

وأسهر مع غرناطة الليل كله . وأنزلق فى الظلمة التى تمزقها أنوار مصابيح باهتة على الطرقات المنحدرة إلى المدينة ، متمنياً من أعماق نفسى ، وبحماسة صادقة أن أجدل من النجوم المتلألئة فى هذه السماء الداكنة الصافية تاجاً أضعه على أعلى قمة فى المدينة التى شهدت غروب الحضارة العربية ، وظلت برغم ذلك تشرق على العالم كله بعظمة خلابة لا يستطيع الإنسان عدوًا كان أو صديقاً ، إلا أن يحنى رأسه لها احتراماً وإجلالاً !

قلت للدليل الذى أصبح صديقاً :

– هل تشعر بشىء ؟ . .

– أنا ؟ . . لا . . .

– أقصد هل تشعر بشىء غير عادى ؟

لا !

– بماذا تحس عندما تأتى إلى هذه المدينة ؟

– إننى أشم رائحة الصيف عنيفة نافذة ، لكنها مريحة .

– فقط ؟ . .

– وبماذا تريدنى أن أحس أيضاً ؟

– ألا يوحى التاريخ إليك بشىء ؟

– التاريخ ؟ . . أنتم الذين صنعتموه هنا فى الأندلس . صنعتموه بانتصاراته وهزائمه . . أما بالنسبة إلينا فإن غرناطة مثل غيرها من مدن هذه المنطقة . إنها مدينة كانت محتلة .

– إن مظهرها أصبح مزيجاً من الطراز العربى والطراز الإسبانى !

– مثل دمائنا ! . لكن دعك من هذا الآن . . تعال نذهب إلى الجبل المقدس .

الجبل المقدس ؟ . .

ليس له من القدسية سوى اسمه فقط (ساكرومونتى) فهو مجموعة من الكهوف فى أحياء بدائية تطل على غرناطة . ولا يقطن هذه الكهوف التى حفرت فى الجبل وتحولت إلى مساكن إلا الغجر . ويسمونهم فى إسبانيا «خيتانو» .

ولا مهمة لهؤلاء سوى العزف على القيثارة والرقص الذى اشتهر بأنه إسبانى !

وحياة الغجر فى هذه الكهوف عجيبة بالفعل : إنهم يعرفون أن الزوار يأتون إليهم من مختلف أنحاء العالم ليتمتعوا برقصهم الثائر ! . .

وهم على الرغم من فقرهم ومن استعدادهم للإقدام على أى عمل يتعارض والقانون . . يمتازون بكبرياء تصل أحياناً إلى حد الغطرسة . ولا يهمهم من زوارهم سوى المال . وكثيراً ما نشبت بينهم معارك دامية من أجل بضعة قروش !

ولا تبالى أية غجرية من الجبل المقدس بمظهرها ، بقدر ما تبالى برقصها.

مظهر بعضهن يدعو أحياناً إلى التقزز . لكن الراقصة منهن ، حين تقف شامخة الرأس ، بارزة الصدر ، لتبدأ رقصتها على إيقاع القيثارة تتحول إلى (إنسانة) تضج بالكبرياء والاعتزاز والأنوثة ، وتنسى كل ما حولها لتنصرف بكل جارحة من جوارحها إلى فنها لأنها تعرف أن هذا الفن يثير الإعجاب بها أكثر من أى شىء آخر.

وعلى الرغم من أن الغجر يمثلون الجانب الفنى البارز فى إسبانيا كلها ، فإنهم يعيشون فى عزلة تامة عن المجتمع الإسبانى ، ويتمسكون بتقاليدهم وعاداتهم إلى حد أنهم يحتقرون أية فتاة منهم تتزوج شخصاً لا يمت إلى عشيرتها بصلة .

وفى أحد الكهوف– وكان كهفاً نظيفاً – رأيت امرأة تحتضن طفلها ، وتجلس على كرسى خشبى وقد ازدانت جدران كهفها بالأوانى النحاسية التى اشتهر الغجر بصنعها ، وحولها عدد كبير من الكراسى الفارغة .

ولما تحدثت إليها عرفت أنها متزوجة من بلجيكى ، وأنها تأتى إلى الجبل المقدس فى غرناطة كل صيف لتزور عشيرتها . لكنها لا ترقص ، لأن الرقص أصبح محرماً عليها . وليس زوجها هو الذى حرمه عليها وإنما عشيرتها ، لأنها تزوجت أجنبيًّا !

وقلت للغجرية المتمردة : وهذه الكراسى الكثيرة ، لمن ؟ . .

قالت : للزوار . إننى أقيم هنا بعض الحفلات ، ويأتى زوار غرناطة لمشاهدتها فأشاهدها معهم !

قلت : وابنتك هذه . . هل ستعلمينها الرقص ؟

أجابت : لا إنها أجنبية !

وقلت والدهشة بادية على وجهى : أليست ابنتك ؟ . .

أجابت : الدم الذى يجرى فى عروقها ليس دماً غجرياً صافياً !

* * *

من الجبل المقدس ، إلى بركة المياه إلى غابات أشجار الليمون والبرتقال ، إلى خمائل الزهور التى ألفنا أشكالها فى بلادنا والتى تشحن الليل بنشوة سحرية ، إلى الشلالات الصغيرة التى تقتل الحر برذاذها الرطب المنعش . . إلى جو الشرق على حدود الغرب فى «جنة العريف» وقصر شارل الخامس فى جوارها ، إلى صوت الماضى ينطلق من وراء غفوة سرقت من الزمن سبعمائة سنة ، إلى جولات متلاحقة فى قادش ،

وملقة ، وطليطلة ، وفى كل مكان خلف العرب جزءاً من وجودهم الحضارى الصامد إلى يومنا هذا . . إلى تلك البيوت الإسبانية التى لا تزال فى بنائها تحمل الطابع العربى ، وفى زينتها النقوش العربية الإسلامية . . إلى تلك القرويات اللواتى أخذن عن المرأة العربية عادة التحجب ، وأحياناً عادة ارتداء الملاءة . .

حيثما ذهبت . . كنت أتساءل : ما الذى حل بالعرب حتى فقدوا القدرة على التفاهم والتعاون والتضامن وظلوا أسرى أثرة كل منهم ، وذاتيته ؟

فى تلك العشية عندما جست كهوف الجبل المقدس فى غرناطة لم أستطع إلا أن أعجب بعصبية الغجر وبتلاحمهم .

صحيح أنهم يقتتلون فيما بينهم من أجل القرش . . فالجوع لا يرحم . . لكنهم إذا ما تسلل إليهم أجنبى تحولوا إلى كتلة واحدة متراصة ، حتى لو كلفهم هذا التراص أياماً متصلة من الجوع والحرمان !

فى تلك العشية . . عندما عدت إلى فندق الحمراء المطل على غرناطة آخر المعاقل العربية ، ووقفت على شرفته ألقى نظرة على المدينة المتناثرة بيوتها ذات القرميد الأحمر فى سهل منبسط أخضر . . تذكرت مرغماً حروب الطوائف التى أودت بعروبة الأندلس ، وآلمنى أن آخر الحكام العرب فى هذا الجزء من العالم لم يستطع مغادرة البلاد مرفوع الرأس ، أو شهيد نضال وكفاح . . فانهمرت الدموع من عينيه عجزاً وندماً ولات

ساعة مندم . . فما كان من والدته إلا أن قالت له والغضب يتأجج فى كلماتها :

لا تبك كالنساء ملكا لم تحافظ عليه كالرجال !

لهذا لا نريد اليوم ، بعد ما رأينا وما نرى ، أن نتحول إلى محترفى بكاء ! . .

فهرس

	الصفحة
مقدمة	٣
حضارة لا نملكها	٥
إرادة الشعوب	٨
الأرض المسحورة	١٣
الشعب الراقص	١٨
رواسب شرطية	٢١
كنت أعيش حلما	٢٣
فى بلاد الأجداد	٢٨
تمسك الأرض أن تميد	٣٦
أسطورة الزهراء	٤٦
المعجزة الضائعة	٥٣

الكتاب القادم

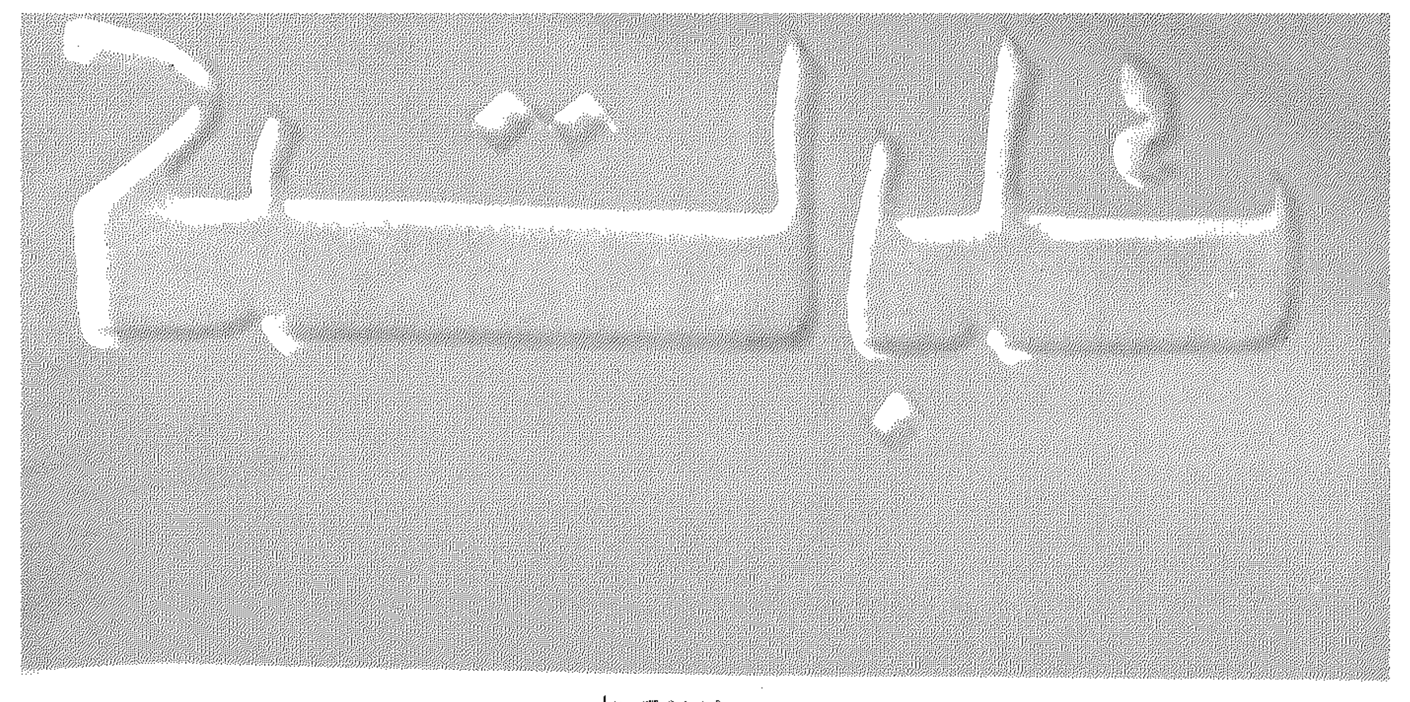
الإسلام وروح العصر

د . حسين فوزى النجار

رقم الإيداع	١٩٧٨/٥٣٠٣
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ - ٢٤٧ - ٥٤٨ - ٠

١/٧٨/٣١٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)



هذا الكتاب

احيانا يتساءل الانسان وببساطة . ما معنى التاريخ ؟ وهل يعيد التاريخ نفسه احيانا . ؟

ان هذا الكتاب يسترجع حقبة قريبة من التاريخ ليجيب عن كثير من القضايا التي تختلط فيها القومية والسياسة والبطولة الخيانة والهزائم المهينة .